الفصل الأول

النزعة الوجودية العبثية في شعر بشار بن برد

النزعة الوجودية العبثية في شعر بشار بن برد

حظي بشار بن برد المقتول سنة 168هـ، باهتمامات الدارسين من قدامى ومحدثين، وقد شغلوا أو شغل كثيرون منهم في تلمس الأسباب الكامنة وراء طغيان ظاهرة العبث والمجون في حياته وفي شعره. وتحاول هذه الدراسة أن تبين بالقرائن النصية سرّ طغيان هذه الظاهرة؛ إذ رأت ان بشاراً كان ذا نزعة وجودية عبثية، وهي نزعة تقوم على محددات أربعة متلاحمة متراسلة هي: الحيرة الاعتقادية، والرهبة من الموت، والإقبال على اللذة بالمرأة والخمر، والإيمان بالحرية الفردية إيماناً جعله يتحدى السلطة الدينية والسياسية التي حاول أربابها أن يحدوا من جموحه فأبى. وقد رصدت الدراسة هذه الأبعاد كلها مركزة على دراسة شعر الشاعر أكثر من الاهتمام بروايات كتاب التراجم والأخبار.

المقدمة

شغلت حياة بشار بن برد، وقبح عماه، وضعة نسبه، ومذهبه السياسي والاعتقادي، وسلاطة لسانه في الهجاء، وتهالكه على اللذة، وشعوبيته، ومقتله على يد الخليفة المهدي سنة 168هـ/785م، اهتمامات الدارسين من قدماء ومحدثين. كما انشغل دارسون كثيرون في تبين موقعه في سياق حركة التجديد في الشعر العربي في العصر العباسي. والناظر في أدبيات هذا العصر يهوله كثرة ما كتب وألّف عن هذا الشاعر، إنْ في فصول من كتب، أو في مؤلفات خاصة به منفردة. وهذه وتلك تشهد لبشار بالتميز، وتغري الباحثين بمعاودة النظر في سيرة حياة هذا الشاعر، وقراءة شعره قراءة دقيقة فاحصة وشاملة، لعل فيها مزيداً من قول، ورؤية جديدة تنضاف، فهذا شأن المبدعين الكبار في الآداب الإنسانية كلها.

ومن أبرز المحاور التي استرعت انتباه الدارسين في شعر بشار وحياته هذا الإقبال الشديد على اللذة؛ فهم مُجْمعون على القول إن بشار بن برد، شاعر اللذة الحسية، كان يتطلبها، ويسعى إليها، ويعبر عن رغبته الجارفة في انتهابها، ويصور ظفره، مستمتعاً بها غير عابىء بقيم دينية أو أخلاقية، أو أعراف اجتماعية، أو أوامر سلطوية. وهم على إجماعهم هذا يختلفون بعد ذلك في تفسير الأسباب الكامنة وراءها، والدوافع إليها.

وتعكف هذه الدراسة على هذا الجانب من حياة بشار وشعره، فترصد مجمل القول في آراء الدارسين في تفسير هذا المنحى في حياة الرجل أولاً، ثم تخلص إلى تفسير خاص بها، يعول على شعر الشاعر أكثر من الاهتمام بروايات الإخباريين وكتاب التراجم.

وأحب أن أنبه على أمرين في هذه الدراسة كنت مضطراً إليهما بسبب من طبيعة هذا الموضوع: الأول كثرة الشواهد الشعرية المبثوثة في ثناياه التي لولاها لظل القول في نزعة بشار الوجودية العبثية ضرباً من الافتئات على الشاعر، غير مؤسس على استقراء شامل ودقيق لشعره. والثاني متولد عن الأول نابع منه بالضرورة، وهو ما يظهر من تكرار في الاستنتاج والأحكام على تلك الأشعار لإلحاح بشار المتكرر على هذا المنزع.

أولاً: آراء الدارسين في تفسير تهالك بشار على اللذة.

لا يختلف جلّ الدارسين في تفسير تهالك بشار على اللذة، وهم مجمعون أو كالمجمعين في تلمس الأسباب الرئيسة في نزوع بشار إليها حين يذكرون أن ذلك يرتد الى طبيعته وجبلته التي خلق عليها، فهو ضخم الجثة، أعمى، قبيح العمى، وجهازه العصبي حاد مُفرط الحدة، فنجم عن ذلك قوة جسدية وجنسية فائقة عرف بها [1] . كما لاحظوا أن بشاراً كان وضيع النسب، فقيراً في وسط بيئي يسخر من الموالي والفقراء وأصحاب العاهات، فتولد لديه شعور التعالي والجرأة في التصريح بآرائه المخالفة للعرف، والمواضعات الاجتماعية، والقيم الدينية، فنظم أشعار المجون والغزل المغري بالرذيلة انتقاماً من ذلك المجتمع الذي ألحق به الأذى والظلم والاحتقار[2]. وأضافوا إلى ذلك قولهم إن عوامل البيئة في البصرة وبغداد وما كان يشيع فيهما من دور نخاسة وجوار وحانات، أسهمت كلها في خلق هذا التوجه لدى هذا الشاعر[3].

ويكاد المازني يحصر نزوع بشار المفرط إلى اللذة والتعهر في عماه، وعمّم حكمه على طوائف أخرى من المكفوفين، كأبي العلاء المعري، وعلي بن جبلة، المعروف بالعكوك، الذين اشتركوا جميعاً في إساءة الظن بالمرأة، واعتبارها مخلوقة يجب ألا يوثق بها[4].

وعدّ محمد زكي العشماوي عمى بشار سبباً في تحدّيه لمجتمعه وللقدر الذي أفقده نعمة البصر، فاستغل حريته الشخصية للتغلب – كما يقول – على هذا الوجود الأحمق الميئوس منه، والتمس التعويض عما فقد بالقوة المعنوية، وعدم الاستسلام للقنوط، والتمرد على التقاليد الاجتماعية، والأوضاع السياسية، والعقائد، ونادى بالتحرر الأخلاقي الجنسي[5].

وأرجع إبراهيم أحمد ملحم سبب إقبال بشار على اللذة إلى عوامل عدة حين قال: "فمن جراء شعور بشار بالنقص في مجتمع لا يكف عن تذكيره به، ونتيجة لضيقه بالناس، وتبرمه بهم، واتصاله بأفكار المعتزلة وغيرها من الفلسفات المختلفة التي أدخلت الشكوك إلى نفسه،

فقد اندفع إلى اللهو ومتطلبات الجسد، علّه يتخفف من تناقض الواقع مع تطلعات الذات"، فسعى يتلف ذاته في اللذة "ليحقق لنفسه الخلود بتحقيق الخصوبة الطبيعية، أو الخصوبة الفنية؛ لأن الرغبة في الخلود متأصلة لدى الإنسان"[6].

وسمّى محيي الدين صبحي هذا المنزع في حياة بشار وشعره المنزع الدهري الذي يدعو إلى المتعة قبل رقدة الموت، غير أنه لم يتعقب بروز هذه النزعة في شعر بشار؛ لأن دراسته كانت معنية بالبحث عمن قتل بشاراً، ولذلك وجدناه يكتفي للتدليل على هذه النزعة الدهرية البشارية بالوقوف على نص واحد من شعر الشاعر حلله تحليلاً بديعاً"[7].

ثانياً: محور هذه الدراسة

ترى هذه الدراسة أن نزوع بشار إلى اللذة إنما مردّه إلى حيرته الاعتقادية، وقلقه الوجودي، وإيمانه بعبثية الحياة. وقد انسحب هذا الاعتقاد على مسلك الشاعر وتصرفاته في الحياة، وطبع بها شعره الذي رأى فيه خير وسيلة لإيصال خطابه إلى الناس؛ ليكفوا عن لومه وتقريعه، وخنق حريته، وتهديده بالقتل، ونفيه من البصرة[8]. ولبيان ذلك كله، فإنها تتوسع في التطبيق برصد الشواهد الإخبارية والشعرية الكثيرة من شعر الشاعر وحياته، وأقوال معاصريه عنه. ويحسن التنبيه هنا على أن بعض الدراسات التي ظهرت حتى بعيد صدور نسخة محمد الطاهر بن عاشور لديوان الشاعر، كانت قد عوّلت على شعر الشاعر المتناثر في كتب التراجم والأدب – وبخاصة كتاب الأغاني – لا على شعر الشاعر في ديوانه، ففات أصحاب تلك الدراسات شعر كثير لم يطلعوا عليه. وينسحب هذا الحكم تمثيلاً على دراسات طه حسين، والعقاد، والمازني، والنويهي، ومحيي الدين صبحي الذي كتب مقالته عن بشار بعد صدور ديوان الشاعر بزمن طويل[9].

أ – بدوات وقرائن إخبارية على هذه النزعة

تتراكم أخبار كثيرة في كتب التراجم والأدب العباسية تشي بمنزع بشار الاعتقادي المتحير المخلّط. وأقدم من كشف عن هذه النزعة الجاحظ الذي قال: إن بشاراً كان يدين بالرجعة(10). والرجعة عند ابن منظور مذهب طائفة من أهل الجاهلية، وأهل البدع في الإسلام كانوا يعتقدون أن الإنسان يرجع بعد الموت إلى الحياة الدنيا(11) . كما قال الجاحظ عنه أيضاً إنه كان يكفّر جميع الأمة، ويصوّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين(12). واستدل الجاحظ على ذلك بقول بشار نفسه: (الكامل).

إبليسُ أفضلُ من أبيكمْ آدمٍ فتنبَّهوا يا معشرَ الفُجّارِ

إبليسُ من نار وآدمُ طينةٌ والطِّينُ لا يَسمْو سُمُوَّ النارِ

وبقوله أيضاً: (البسيط)

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النارُ

وروى ابن المعتز في طبقاته خبراً عمن عرف بشاراً أنه قال: كان بشار أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله، فعاشر قوماً من الحرّانيين، فخبث دينه[13].

وروى أبو الفرج الأصفهاني أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام كانوا يجتمعون في منزل أحدهم ويختصمون، فصار اثنان منهما إلى الاعتزال هما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وصحّح اثنان آخران اعتقادهما هما عبد الكريم بن أبي العوجاء، وصالح بن عبد القدوس، وصار الخامس إلى مذهب من مذاهب الهنود يدعى السُّمنيَّة، وهو مذهب دهري ملحد لا يؤمن أتباعه بالآخرة[14]. أما سادسهم بشار، فبقي متحيراً مخلطاً[15].

وروي أن بشاراً شهد مجلساً فقال لجلسائه: لا تصيّروا مجلسنا هذا شعراً كله، ولا حديثاً كله، ولا غناء كله، فإنَّ العيش فرص، ولكن غنوا، وتحدّثوا، وتناشدوا، وتعالوا نتناهب العيش تناهباً[16]. ويروى أن أحد أصدقاء بشار من المجان أشار على بشار أن يخرجا إلى الحج لينفيا عن نفسيهما ما نسبه الناس إليهما من الزندقة،، فاشتريا بعيراً ومحملاً، غير أنهما أشفقا على نفسيهما من مشقّة الرحلة، واتفقا أن يميلا إلى محلة بالكوفة يتنعمان فيها، فإذا قفل الحجاج عارضاهم بالقادسية، وجزّا رأسيهما موهمين الناس عند عودتهما أنهما عادا من الحج، مع أنهما ظلا يشربان الخمر ويفسقان في تلك المحلة[17]. كما روي أن بشاراً سئل مرة عن أحب الأشياء إليه، فأجاب "طعام مُزّ، وشراب مُرّ، وبنت عشرين بكر"[18].

وروى الأصفهاني عن بعض معاصري بشار أنه قال: "كنت أكلم بشاراً، وأردّ عليه سُوءَ مذهبه بميله إلى الإلحاد، فكان يقول: "... وأنَّ الذي نحن فيه خِذلان، ولذلك أقول: (الطويل).

طُبِعْتُ على ما فيَّ غَيْرَ مُخَيَّر هَوايَ، ولو خُيِّرْتُ كنتُ المُهذَّبا

أُريد فلا أُعْطَى، وأُعْطَى ولم أُرِدْ وقصَّرَ علْمي أنْ أنالَ المُغَيَّبا

فأُصْرَفُ عن قَصدْي وعِلْمي مُقَصِّرٌ وأُمسي وما أُعْقِبْتُ إلا "التَّعَجُّبا"[19].

كما روى الأصفهاني عن بشار أنه حين عزّاه أحدهم بابنه قائلاً له: "أَجرٌ قَدَّمْته وفَرطٌ افترطْتَه، وذخْرٌ أحرزْتهُ، فقال: "وَلَدٌ دَفَنْتُه، وثُكْلٌ تَعَجَّلْتهُ، وغيب وُعِدْتُه فانتظرْتُه، والله لئن لم أَجْزَعْ للنقص لا أفرح للزيادة"[20].